المطلب الثاني
تعريف النِّداء لغة واصطلاحًا

أوَّلًا: النِّداء لغة:

هو: الدُّعاء بأيِّ لفظٍ كان، وناداه مناداة ونداء، أي: صاح به. و(النِّداءُ) بالضَّمِّ والكسر.

وفي (الصَّحاح): "(النِّداءُ): الصَّوتُ، وقد يُضَمُّ مِثْلُ الدُّعاءِ والرُّغاء"[1].

وقال الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(النِّداء): رفع الصَّوت وظهوره، وقد يقال ذلك للصَّوت المجرَّد، وإيَّاه قصد بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَثَلُ الذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً﴾ [البقرة:١٧١]، أَي: لا يعرفُ إلا الصَّوت المجرَّد دون المعنى الذي يقتضيه تَرْتِيبُ الكلام، ويقالُ للحَرْفِ الذي فُهِمَ منه المعنى ذلكَ. قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء:١٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ [المائدة:٥٨]، أي: دعوتم، وكذلك: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩].

ونداء الصَّلاة مخصوص في الشَّرعِ بالألفاظ المعروفة، وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، فاستعمال النِّداء فيهم تنبيهًا على بعدهم عن الحقِّ في قوله: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق:٤١]، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، وقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ﴾ [النمل:٨]، وقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣]، فإنَّه أشار بالنِّداء إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّه تصوُّر نفسه بعيدًا منه بذنوبه..

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (ندا) (٦/٢٥٠٥).

ثمَّ قال -أي: الرَّاغب-: "وأصل (النِّداء) من النَّدى. أي: الرُّطوبة، يقال: صوت ندي رفيع، واسْتِعارَةُ (النِّداءِ) للصَّوْت مِن حيثُ إنَّ مَنْ تَكْثرُ رُطُوبَة فَمِه حَسُن كَلامُه؛ ولهذا يُوصَفُ الفَصِيحُ بكَثْرة الرِّيق"[(١)].

و(نادَيْتُه) و(نادَيْتُ به مُنادَاةً ونِداءً): صاحَ به[(٢)].

ثانيًا: النداء اصطلاحًا:

وأمَّا تعريف النِّداء في الاصطلاح فهو: "طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو)[(٣)] ملفوظ به أو مقدَّر[(٤)]. والمراد بالإقبال: ما يشمل الإقبال الحقيقيَّ والمجازي المقصود به الإجابة، كما في نحو: (يا الله)"[(٥)].

والحاصل أنَّ النِّداء هو طلب المنادى بأحد حروف النِّداء.

والنَّحويون يرون في حرف النِّداء والمنادَى بعده جملة مقدَّرة، فقولك: (يا زيد) بمنزلة قولك: (أدعو زيدًا)، وهو من قبيل الإنشاء الوارد بصيغة الخبر. وقد نصَّ على ذلك السُّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (همع الهوامع)[(٦)].

---

(١) بقليل من التصرف عن (مفردات ألفاظ القرآن)، مادة: (ندا) (ص:٧٩٧).

(٢) وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ندا) (٢٥٠٥/٦)، تاج العروس (٥٨/٤٠-٨٩)، ولسان العرب (٣١٣/١٥)، والمصباح المنير (٥٩٨/٢-٥٩٩)، وانظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني (١٣٣/٣).

(٣) انظر: المقتضب، للمبرد (٢٠٢/٤)، وانظر: الأصول في النَّحو، لابن السَّراج (٣٤٠/١).

(٤) وعرَّفه ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّه "استدعاء المخاطِب المخاطَب إذا كان بعيدًا منه". نزهة الأعين النَّواظر (ص:٥٩٢)، وانظر: شروح تلخيص المفتاح (٣٣٤/٢- ٣٣٥).

(٥) حاشية الصَّبان (١٣٣/٣).

(٦) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع (٣٢/٢)، وانظر: الأساليب الإنشائية في النَّحو العربي (ص:١٣٦). وفي (المغني): "حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة، أو حكمًا، وقد ينادى بها القريب توكيدًا. وقيل: هي مشتركة بين القريب والبعيد. وقيل: بينهما وبين المتوسط، وهي أكثر أحرف النِّداء استعمالا؛ ولهذا لا يقدَّر عند الحذف سواها نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ...﴾ [يوسف:٢٩]". مغني اللَّبيب (ص:٤٨٨). وعند المالقي والمرادي حرف موضوع لنداء البعيد مسافة أو حكمًا. الجنى الدَّاني (ص:٣٥٤)، رصف المباني (ص:٣٥٤)، توضيح المقاصد (١٠٥١/٢). وسيأتي تحقيق ما يترجَّح من حيث المعنى بالنِّسبة لنداءات=

والحرف قد يكون ملحوظًا نحو: ﴿يَا آدَمُ﴾ [البقرة:٣٣]، أو مقدَّرًا نحو: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ﴾ [يوسف:٢٩].

وهنا أورد صاحب الحاشية على الأشموني[١] اعتراضين ثمَّ أجاب عنهما:

قال: "ولا يرد: (يا زيد لا تقبل)؛ لأنَّ (يا) لطلب الإقبال لسماع النَّهي، والنَّهي عن الإقبال بعد التَّوجه. واعترض نيابة حرف النِّداء عن (أدعو) بأنَّ (أدعو) خبر، والنِّداء إنشاء، وأجيب بأنَّ (أدعو) نقل إلى الإنشاء"[٢].

ثالثًا: توضيح معنى النِّداء من خلال تفسير الآيات:

تتوجُّه العناية والاهتمام هنا إلى توضيح بعض المعاني المتعلِّقة بالنِّداء من خلال النصوص القرآنية ممَّا لا يُستغني عنه في هذا المجال.

ولعلَّ ممن أفاد وأجاد في التوضيح والبيان العلامة المفسِّر محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التَّحرير والتَّنوير). وقد رأيت أن أنقل بعض ما ذكره ممَّا يثري هذا الموضوع، وهو بمثابة نماذج تطبيقيَّة لتوضيح معنى النِّداء في الخطاب القرآني، وفيه نظرات رائعة لمعانٍ تتعلَّق بالنِّداء بما يفيد موضوع البحث، ويزيد مفهوم النِّداء حركةً وتألُّقًا وبُعدًا. وهاك بعض النماذج:

١ – يقول مثلًا في بيان معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ [آل عمران:١٩٣]: "أرادوا به النَّبيَّ محمَّدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. و(المنادِي) –بكسر الدال المهملة–:

=القرآن. وقوله: (حرف موضوع لنداء البعيد حقيقة أو حكمًا)، أي: كالنَّائم والغافل والسَّاهي فهو ينزَّل منزلة البعيد. انظر: مصابيح المعاني (ص:٤٢٤)، حاشية الشيخ محمد الأمير على المغني (٤١/٢). وسيأتي أيضًا بيان ذلك مفصَّلًا..

(١) يعني: العلامة الصَّبان، وقد سبق التَّعريف به. والأشموني هو "علي بن محمد بن عيسى بن محمد الأشموني الأصل، ثمَّ القاهري، الشافعي، (نور الدِّين) نحوي، فقيه، فرضي، منطقي، ناظم. ولد في شعبان، وتوفي في [١٧] ذي الحجَّة. [٩١٨هـ]. من آثاره: تعليقه على (الأنوار لعمل الأبرار)، للأردبيلي في فروع الفقه الشَّافعي، نظم (إيساغوجي) في المنطق، وشرح ألفية ابن مالك في النَّحو. معجم المؤلفين (٢٢٥/٧).

(٢) حاشية الصَّبان (١٣٣/٣).

الذي يرفع صوته بالكلام. و(النِّداء): رفع الصَّوت بالكلام رفعًا قويًّا لأجل الإسماع، وهو مشتقٌّ من (النِّداء) -بكسر النون وبضمِّها-، وهو الصَّوت المرتفع. يقال: (هو أندى صوتًا)، أي: أرفعُ، فأصل (النِّداء): (الجهر بالصَّوت والصِّياح به)، ومنه سمِّي دعاء الشَّخص شخصًا ليقبل إليه: (نداء)؛ لأنَّ من شأنه أن يرفع الصَّوت به؛ ولذلك جعلوا له حروفًا ممدودة مثل: (يا) و(آ) و(أيا) و(هيا)[1]. ومنه سمِّي (الأذان): نداء[2]، وأطلق هنا على المبالغة في الإسماع والدَّعوة -وإن لم يكن في ذلك رفع صوت-.

ويطلق النِّداء على طلب الإقبال بالذَّات أو بالفَهم بحروف معلومة كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥﴾ [الصَّافات:١٠٤-١٠٥]. ويجوز أن يكون هو المراد هنا؛ لأنَّ النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو النَّاس بنحو: (يأيُّها النَّاس)، و(يا بَني فلان)، و(يا أمَّة محمَّد)، ونحو ذلك"[3].

٢ - وذكر أيضًا في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢] "أنَّه مستعملٌ في المعنى المشهور: وهو (طلب الإقبال)، على أنَّ الإقبال مجازيٌّ لا محالة، فيكون كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ [الأنبياء:٨٩]، وهو كثيرٌ في الكلام. ويجوز أن يكون مستعملًا في الكلام بصوت مرتفع كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَثَلِ الذى يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إلا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة:١٧١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف:٤٣]، ورفع الصَّوت يكون لأغراض، ومحمله هنا[4] على أنَّه صوت غضب وتوبيخ. وظاهر إسناد النِّداء إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ناداهما بكلام بدون واسطة مَلك مرسل، مثل الكلام الذي كلَّم الله عَزَّوَجَلَّ به موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وهذا واقع قبل

---

(١) سيأتي بيان حروف النِّداء، والمستخدم من ذلك في القرآن الكريم.

(٢) سبق بيان ذلك في أوجه النِّداء.

(٣) يعني: قول الله عَزَّوَجَلَّ مخاطبًا آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وحواء عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف:٢٢]. التَّحرير والتَّنوير (١٩٩/٤).

(٤) يعني قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾.

الهبوط إلى الأرض، فلا ينافي ما ورد من أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أوَّل نبيٍّ كلَّمه الله عَزَّوَجَلَّ بلا واسطة. يجوز أن يكون نداءُ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بواسطة أحد الملائكة"[1].

٣ – ومن ذلك ما قيل في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الذينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف:٥٢] أنَّ (النِّداء): "طلب الإقبال للنُّصرة والشَّفاعة. و(الاستجابة): الكلام الدَّالُّ على سماع النِّداء، والأخذُ في الإقبال على المنادي بنحو قول: (لبيكم). وأمره إيَّاهم بمناداة شركائهم مستعمل في معناه مع إرادة لازمه، هو إظهار باطلهم بقرينة فعل الزَّعم؛ ولذلك لم يسعهم إلَّا أن ينادوهم حيث قال: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لطمعهم، فإذا نادوهم تبيَّن لهم خيبة طمعهم؛ ولذلك عطف فعل الدُّعاء بالفاء الدَّالَّة على التَّعقيب. وأتي به في صيغة المضي للدِّلالة على تعجيل وقوعه حينئذٍ حتى كأنَّه قد انقضى"[2].

---

(١) بقليل من التَّصرُّف عن (المصدر السابق) (٦٦/٨).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٣٤٥/١٥). وقد جاء معنى (النِّداء) في كتب التَّفسير مع زيادة في الإيضاح والبيان، فمن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣] "أنَّ النِّداء: أصله رفع الصَّوت بطلب الإقبال. ويطلق النِّداء كثيرًا على الكلام الذي فيه طلب إقبال الذَّات لعمل أو إقبال الذِّهن لوعي كلام؛ فلذلك سمِّيت الحروف التي يفتتح بها طلب الإقبال: حروف النِّداء. ويطلق على الدُّعاء بطلب حاجة وإن لم يكن فيه نداء؛ لأنَّ شأن الدُّعاء في المتعارف أن يكون جهرًا. أي: تضرُّعًا؛ لأنَّه أوقع في نفس المدعو. ومعنى الكلام: أنَّ زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: (يا رب) بصوتٍ خفيٍّ. وإنما كان خفيًّا؛ لأنَّ زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى أنَّه أدخل في الإخلاص، مع رجائه أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يجيب دعوته لئلا تكون استجابته مما يتحدَّث به النَّاس؛ فلذلك لم يدعه تضرُّعًا، وإن كان التَّضرع أعون على صدق التَّوجه غالبًا، فلعلَّ يقين زكريَّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كافٍ في تقوية التَّوجه، فاختار لدعائه السَّلامة من مخالطة الرِّياء. ولا منافاة بين كونه نداءً، وكونه خفيًّا؛ لأنَّه نداء من يسمع الخفاء". التَّحرير والتَّنوير (٦٣/١٦). وفي موضع آخر: النِّداء: الكلام الدَّالُّ على طلب الإقبال، وأصله: جهر الصَّوت؛ لإسماع البعيد، فأطلق على طلب إقبال أحد مجازًا مرسلا. ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩]. وهو مشتق من (النَّدى) – بفتح النُّون وبالقصر– وهو بُعد الصَّوت. ولم يسمع فعله إلا بصيغة المفاعلة، وليست بحصول فعل من جانبين بل المفاعلة للمبالغة". بتصرُّف عن (التَّحرير والتَّنوير) (١٢٨/١٦).

ويتبيَّنُ ممَّا سبق أهميَّة مدى اهتمام بعض المفسرين بإبراز ما يتعلق بالنداء من المعاني، وبيان الحكمة من استخدام أداة النِّداء، وكذلك (ما ولي المنادَى) من الأمر أو النَّهي أو الاستفهام أو الخبر؛ لأنَّ القصد من النِّداء دعوة المخاطَب –بفتح الطاء المهملة–؛ ليقْبل على المخاطِب –بكسر الطاء المهملة–، ويتنبَّه إلى مضمون الخطاب، ويعلم فائدة الاستجابة، وليكون على حذر من عاقبة الإعراض. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧].

وقال حكاية عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح:٧].

رابعًا: بيان من الذي ينادَى؟

وإنما ينادَى المميِّز الذي يعقل الخطاب..

وقد سبقَ بيان أنَّ النِّداء طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو) ملفوظ به أو مقدَّر، والإقبال: ما يشمل الإقبال الحقيقي والمجازي المقصود به الإجابة، ولكن من الذي ينادَى؟

إنَّ الذي ينادى إنما هو المميِّز؛ ولذلك وصف الله عَزَّوَجَلَّ الخطاب القرآني بأنَّه منزَّلٌ لقومٍ يعقلونه بعقولهم، ومن يعقل هو الذي يميِّز؛ ولذلك يقع عليه التَّكليف المتفرِّع عن عبوديَّته لله عَزَّوَجَلَّ بما يتضمَّنه الخطاب القرآني، وذلك إذا كان المخاطِب –بكسر الطاء المهملة– هو الله عَزَّوَجَلَّ. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢].

"وأمَّا نحو: ﴿يَا أَرْضُ﴾ [هود:٤٤]، و﴿يَا جِبَالُ﴾ [سبأ:١٠]، فقيل: إنَّه من باب المجاز؛ لتشبيه ما ذكر بالمميِّز في الانقياد، واستعارته في النَّفس له على طريق الاستعارة

بالكناية[1]، و(يا) تخييل. ولك أن تقول: من الجائز أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لما ذكر حال الخطاب تمييزًا فلم يقع النِّداء إلا لمميِّز، وهمزة النِّداء منقلبة عن واو مثل (كساء)"[2].

والحاصل أنَّ ذلك من حمل هذا الألفاظ وما كان مثلها في الكتاب والسُّنَّة على المجاز المعروف من لسان العرب، وجَعل قرينة المجاز الخطاب للجماد.

---

(١) وأمَّا الاستعارة بالكناية فهي أن تذكر المشبَّه وتريد المشبَّه به دالًّا على ذلك بإضافة شيء من لوازم المشبَّه به المساوية إلى المشبَّه مثل أن تشبه المنية بالسَّبع، ثمَّ تفردها بالذِّكر مضيفًا إليها الأنياب والمخالب قائلا: (أنياب المنية) أو (مخالب المنية قد نشبت بفلان)، ونحوه: (لسان الحال ناطق بكذا) وهي لا تنفكُّ عن التَّخيليَّة؛ فإنَّ إثبات ذلك الأمر للمشبَّه استعارة تخيليَّة. أمَّا الكناية فلأنَّه لم يصرَّح به، بل إنما دلَّ عليه بذكر خواصِّه ولوازمه، وأمَّا الاستعارة فمجرَّد تسمية خالية عن المناسبة. ويسمَّى إثبات ذلك الأمر المختص بالمشبَّه به للمشبَّه استعارة تخيليَّة؛ لأنَّه قد استعير للمشبَّه ذلك الأمر الذي يختصُّ المشبَّه به، وبه يكون كمال المشبَّه به أو قوامه في وجه الشَّبه ليخيل أنَّ المشبَّه من جنس المشبَّه به. انظر: الكليَّات (ص:١٠٢)، الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٢٩٠)، التَّعريفات (ص:٣٥)، مختصر المعاني، للسَّعد (ص:٢٢٦).

(٢) حاشية الصَّبان (١٣٣/٣)، وانظر: روح المعاني (٦٤/١٢)،الإيضاح في علوم البلاغة (ص:٣١٢)، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح (ص:٣٨٩—٣٩٠). قال الزَّمخشريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نادَى الأرض والسَّماء بما ينادي به الإنسان المميِّز على لفظ التَّخصيص، والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله: ﴿يَا أَرْضُ﴾، ﴿وَيَا سَمَاءُ﴾، ثمَّ أمرهما بما يؤمر به أهل التَّمييز والعقل من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾، و﴿أَقْلِعِي﴾ [هود:٤٤]، من الدِّلالة على الاقتدار العظيم، وأن السَّموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء، غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميِّزون، قد عرفوا عظمته وجلاله وثوابه وعقابه، وقدرته على كلِّ مقدور، وتبيَّنوا تحتُّم طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه ويفزعون من التَّوقف دون الامتثال له، والنُّزول عن مشيئته على الفور من غير ريب. فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولًا لا حبس ولا إبطاء". الكشاف (٢٧١/٢)، البحر المحيط (١٥٩/٦). أقول: والمعنى أنَّه عَزَّوَجَلَّ إذا أراد تكوين الأشياء لم تمتنع عليه، ووجدت كما أرادها على الفور من غير تأخير في ذلك، كالمأمور المطيع الذي إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع كان المأمور به مفعولًا لا حبس ولا إبطاء، وهو المجاز الذي يسمَّى بالاستعارة التَّمثيليَّة، تمثيلًا لكمال قدرته وانقيادهما لما يشاء تكوينه فيهما بالأمر المطاع الذي يأمر المنقاد لحكمه المبادر إلى امتثال أمره مهابة من عظمته وخشية من أليم عقابه. والاستعارة التَّمثيليَّة هي تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي. والقرينة على هذا القول هي خطاب الجماد، ووجه الشَّبه سرعة الاستجابة. هذا على القول الأوَّل، أمَّا على القول الثَّاني فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ لها إرادة وتمييزًا فكان الخطاب على حقيقته، وهو الرَّاجح كما سيأتي.

هذا على المذهب الأوَّل.

والمذهب الآخر أنَّ ذلك على سبيل الحقيقة.

ومن حمل هذا على الحقيقة جعل للأرض وللجبال إرادةً يفهمها من شاء الله عَزَّوَجَلَّ له ذلك. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ لكلِّ شيءٍ تسبيحًا كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ:١٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤]. وجعل للسَّموات والأرض بكاءً وقولًا في مثل هذا المعنى صحيحًا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٩]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١]. فخاطبهما وأثبت لهما القول.

وكذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب:٧٢]؛ فإنَّ العرض —التَّخيير— إنما يكون للمميِّز..

والرَّاجح أنَّ التَّسبيح والاستجابة على سبيل الحقيقة، فكلُّ شيءٍ على العموم يُسبِّحُ الله عَزَّوَجَلَّ مثلًا تسبيحًا لا يفقهه البشر كما هو منطوق الآية، ولو كان التَّسبيح ما قاله الآخرون من أنَّه أثر الصَّنعة، لكان أمرًا مفهومًا، والآية تنطق بأنَّه لا يُفقه. ولو كان تسبيحها آثار الصَّنعة لما كان لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨].

والقول بالحقيقة هو القول الرَّاجح —كما أسلفت—، ولكنَّ هذا كلُّه في (الجمادات).

وأمَّا ما يمكن التَّسبيح منه فقول واحد أنَّ تسبيحهم حقيقة[1]. وسيأتي مزيد من البيان في (نداء الجمادات).

خامسًا: حذف أداة النِّداء:

وكثيرًا ما تحذف أداة النِّداء، ولا سيَّما في نداء الرَّبِّ ودُعائه، فتكون مقدَّرة ذهنًا، مثل:

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة:١٢٦][2]، وما كان نحو: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ [البقرة:١٢٧]، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨]، ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا﴾ [البقرة:١٢٩]، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة:٢٠٠-٢٠١]، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة:٢٥٠]، ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥].....الخ، أي: يا ربَّنا.

ونحو: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي﴾ [الأعراف:١٥١][3]، ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:٢٦، ٣٩][4].

ومن ذلك: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن:٣١]، وهو منادى نكرة مقصودة حذف منه حرف النِّداء..-وسيأتي بيان (نداء النَّكرة المقصودة)-..

وممَّا قيل[5]: إنه من الحذف مع (اسم الإشارة) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٨٥]، أي: يا هؤلاء. قال الطَّبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في قوله عَزَّوَجَلَّ:

---

(١) انظر: معاني القرآن، للزَّجاج (١٢١/٥)، المحرَّر الوجيز (٢٥٦/٥)، تفسير القرطبي (٢٦٦/١٠)، تفسير الثَّعالبي (٣٧٧/٥)، زاد المسير (٤٥٣/٤). وانظر: التَّمهيد، لابن عبد البَّر (١٧٨/٢٠)، (٣٣١/٢٢)، الاستذكار (١٠٠/١)، (٣٨٦/١).

(٢) ونحوه: ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [آل عمران:٤١]، و[مريم:١٠]، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم:٣٥].

(٣) ونحوه: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ [المؤمنون:١١٨]، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص:٣٥]، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح:٢٨].

(٤) ونحوه: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠].

(٥) "جوَّز الكوفيُّون حذف (يا) من اسم الإشارة عند النِّداء؛ لأنَّه معرفة قبل النِّداء. وأمَّا البصريُّون فمنعوا هذا الحذف؛ لأنَّ اسم الإشارة وإن كان معرفة قبل النِّداء فهو موضوع في الأصل لما يُشار إليه للمخاطَب،=

﴿ثُـمَّ أَنْـتُمْ هَـؤُلاءِ﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون أريد به (ثمَّ أنتم يا هؤلاء)، فترك (يا) استغناء بدلالة الكلام عليه كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُوسُـفُ أَعْـرِضْ عَـنْ هَـذَا﴾ [يوسف:٢٩]. وتأويله: (يا يوسف أعرض عن هذا). والوجه الآخر أن يكون معناه: ثمَّ أنتم قوم تقتلون أنفسكم. فيرجع إلى الخبر عن ﴿أَنْتُمْ﴾. وقد اعترض بينهم وبين الخبر عنهم بهؤلاء، كما تقول العرب: (أنا ذا أقوم) و(أنا هذا أجلس)، وإذْ قيل: أنا هذا أجلس كان صحيحًا جائزًا، كذلك: أنت ذاك تقوم ...."[(١)].

والأداةُ التي تُقدَّرُ عند الحذف هي: (يا) فيما ذكر النُّحاة -كما سيأتي-..

سادسًا: حذفُ المنادَى:

قد يُحذف المنادى بعد (يا)، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـا وَيْلَنَـا مَـنْ بَعَثَنَـا مِـنْ مَرْقَـدِنَا﴾ [يس:٥٢]، فإنَّ أداة النِّداء في قوله: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ينادى بها محذوف، وأنَّ ما بعدها مفعول فعل محذوف، والتَّقدير: (يا من بحضرتنا انظروا هلكتنا)[(٢)].

وكما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْـجُدُوا﴾ [النمل:٢٥] على تقدير: (ألا يا اسجدوا)، أي: يا هؤلاء -وسيأتي بيان ذلك مفصَّلًا-.

=وبين الاسم مشارًا إليه وكونه منادَى -أي: مخاطَبًا- تنافر ظاهر، فلمَّا أُخْرج في النِّداء عن ذلك الأصل، وجُعِل مخَاطَبًا احتيج إلى علامة ظاهرة تدلُّ على تغييره وجعله مخاطبًا، وهي حرف النِّداء، والكوفيُّون جوَّزوا حذف الحرف من اسم الإشارة، اعتبارًا بكونه معرفة قبل النِّداء، واستشهادًا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ﴾. وليس في الآية دليل؛ لأنَّ ﴿هَؤُلاءِ﴾ خبر المبتدأ، كما يجئ في الحروف، فبقي على هذا من المعارف التي يجوز حذف الحرف منها: العلم والمضاف إلى (أي) معرفة كانت، والموصولات. وأمَّا المضمرات فيشذُّ نداؤها، نحو: يا أنت، ويا إياك..". شرح الرَّضي على الكافية (١/٤٢٦- ٤٢٧)، وانظر: شرح الكافية الشَّافية (ص:١٢٩١)، مغني اللَّبيب (ص:٢٥٧)، وقد اختار رأي الكوفيين ابنُ مالك. انظر: شرح ابن عقيل (٣/٢٥٧)، توضيح المقاصد (٢/١٠٥٤- ١٠٥٦).

(١) بتصرُّف عن (تفسير الطَّبري) (٢/٣٠٣- ٣٠٤). أقول: ولكن ينبغي أن يلاحظ الباحث ما ذكرت آنفًا في الحاشية من اختلاف البصريين والكوفيين في مثل هذا الحذف...وأنَّ الأكثر قد اختار رأي البصريين.

(٢) انظر: البحر المحيط (٧/١٨٨)، روح المعاني (١٥/٢٩١)، أضواء البيان (٣/٢٨٨).

ومن ذلك ما قيل في ﴿يَـا لَيْـتَ﴾ [القصص:٧٩]، و[يس:٢٦]، و[الزخرف:٣٨]، أو يا هؤلاء. وسيأتي بيانه.